

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على اشرف الانبياء والمرسلين
نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

قال الله تعالى: أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) (سورة الحج)

شرح الكلمات:

{أذن للذين يقاتلون} أي المؤمنين أن يُقاتلوا وهذه أول آية نزلت في
الجهاد {بأنهم} أي بسبب أنهم {ظلموا} لظلم الكافرين إياهم {وإن
الله على نصرهم لقدير}

المعنى الاجمالي :

كان المسلمون في أول الإسلام ممنوعين من قتال الكفار، ومأمورين
بالصبر عليهم، لحكمة إلهية، فلما هاجروا إلى المدينة، وأوذوا، وحصل
لهم منعة وقوة، أذن لهم بالقتال، قال تعالى: {أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ} يفهم
منه أنهم كانوا قبل ممنوعين، فأذن الله لهم بقتال الذين يقاتلون، وإنما
أذن لهم، لأنهم ظلموا، بمنعهم من دينهم، وأذيتهم عليه، وإخراجهم من
ديارهم.

{وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} فليستصروه، وليستعينوا به. وقوله
تعالى: {أذن للذين يقاتلون} باسم للفعل أي القادرين على القتال
ويقاتلون باسم المفعول وهما قراءتان أي قاتلهم المشركون هؤلاء أذن الله
تعالى لهم في قتال أعدائهم المشركين بعدما كانوا ممنوعين من ذلك
لحكمة يعلمها

ربهم، وهذه أول آية في القرآن تحمل طابع الحرب بالإذن فيه للمؤمنين،
وقوله: {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} طمأنهم على أنه معهم بتأييده ونصره
وهو القدير على ذلك.

وكان المسلمون في أول أمرهم ممنوعين من قتال الكفار، مأمورين بالصبر على
أذاهم، فلما بلغ أذى المشركين مداه وخرج النبي صلى الله عليه وسلم من
«مكة» مهاجراً إلى «المدينة» ، وأصبح للإسلام قوة أذن الله للمسلمين في
القتال؛ بسبب ما وقع عليهم من الظلم والعدوان، وإن الله تعالى قادر على
نصرهم وإذلال عدوهم.

ومعنى {أَذِنَ} . {الحج: 39} أنهم كانوا ينتظرون الأمر بالقتال،
ويستشفرون للنصر على الأعداء، لكن لم يؤذن لهم في ذلك، فلما أراد الله
لهم أن يقاتلوا أذن لهم فيه. وعلة القتال أنهم ظلموا، لذلك أمرهم ربهم -
تبارك وتعالى - أن يقاتلوا، لكن لا يعتدوا، كما قال سبحانه:

{وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ
وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُم}. {البقرة:
190 - 191} .

وقوله- تعالى:- {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} وعد منه- سبحانه- للمؤمنين
بالنصر وحض لهم على الإقدام على الجهاد في سبيله بدون تردد أو وهن.
أي: وإن الله- تعالى- لقادر على أن ينصر عباده المؤمنين. وعلى أن يمكن
لهم في الأرض، وعلى أن يجعلهم الوارثين لأعدائهم الكافرين.

أسباب النصر:

أول تلك الأسباب : الإيمان بالله تعالى [باطناً و ظاهراً] .
قال تعالى : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ
الْأَشْهَادُ) .

الثاني : الصبر

قال تعالى : (بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم
بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ) .

الثالث : الإخلاص لله تعالى . [أن يكون القصد نصر دين الله وإقامة شرعه
قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُخَيِّتْ أَقْدَامَكُمْ) .

الرابع : الإعداد الحادي

قال تعالى : (وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ
الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِّن دُونِهِمْ لَا
تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ...)

الخامس : الائتلاف وعدم الاختلاف

قال تعالى : (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا
وَتَذْهَبَ رِجَالُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ) .

السادس : التوكل على الله والاعتماد عليه واللجوء إليه
والتضرع بالدعاء إليه قال تعالى : (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ
عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) .

السابع : الإستغاثة بالله سبحانه

لقوله تعالى : { إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ أَنِّي
مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ }

إن المنهج الرباني في علاج الأمور الشاذة والانحرافات الخطيرة
قائم على غاية الحكمة والاعتدال، والتأني والإمهال، فلم يعجل
الله البدء بقتال المشركين أنصار الوثنية والضلال، وإنما صبر
عليهم مدى خمسة عشر عاماً، ليكون للعقل والفكر وإعمال
الرأي والقناعة الدور المهم في القضايا.

ولتبدأ الأمة الإسلامية قوة ناشطة، معذورة في كل ما
تؤديه من واجبات، لأن لغة السيف وقعقة السلاح إنما
تكون حين استفحال العدوان، واليأس من الصلاح
والاستقامة، وهذا المنهج هو الذي نجده في ساحة التشريع
الإلهي بالإذن بمشروعية القتال، بعد طول الصبر
والمصابرة، والدفع بالحكمة والحسنى.

وقد أبيض أو رخص للمؤمنين المعتدى عليهم بممارسة
القتال، ضد ظلم المشركين إياهم، بإخراجهم من ديارهم
وأموالهم، واستمرار إيذائهم، واضطهادهم، ومبادرتهم بكل
أنواع التعذيب والمضايقة، وإن الله وحده قادر على نصر
أهل الإيمان، إذا التزموا سبيل الطاعة.

الفوائد:

- 1- الله ينصر عباده المظلومين... فالمظلوم يُحمل دعوته فوق الغمام ويقول له رب العزة "لأنصرك ولو بعد حين".
- 2- الله قادر على نصر عباده ولكننا مأمورون بالأخذ بالأسباب أولاً ولهذا يقول رب العزة "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدو الله وعدوكم" وبعد الأخذ بالأسباب يأتي مدد الله ونصره.
- 3- مشروعية القتال لإعلاء كلمة الله بأن يعبد وحده ولا يضطهد أوليأؤه.
- 4- بيان سر الإذن بالجهاد ونصرة الله لأوليائه الذين يقاتلون من أجله.
- 5- علل الله تعالى الإذن بالقتال: بقوله: (بَأْتَهُمْ ظُلُمًا)، أي بسبب أنهم ظلموا. وانتصار الأمة المظلومة من الظالمين لها أمر يسوغه قانون العدل وقانون الرحمة، فمن الرحمة بالإنسان وقف ظلمه، ورد بغيه عليه، وأن يدافع عن المؤمنين المظلومين كما وعد، ولذا قال سبحانه: (وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ).
- 6- بشارة للمؤمنين، وتقوية لعزائمهم حتى يقبلوا على ما شرعه الله لهم من جهاد أعدائهم، بثبات لا تردد معه، وبأمل عظيم في نصر الله وتأييده.
- 7- شرع - سبحانه - الجهاد في الوقت الأليق به، لأنهم لما كانوا بمكة، كان المشركون أكثر عدداً. فلو أمر المسلمون بالقتال لشق ذلك عليهم فلما استقروا بالمدينة. وصارت لهم دار إسلام، ومعقلا يلجئون إليه شرع الله جهاد الأعداء، فكانت هذه الآية أول ما نزل في ذلك.
- 8- إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ أي إن الله وحده هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكنه يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته، وهو حينئذ معهم يؤيدهم بنصره.
- 9- تقرير وإيذان بأن الذين يؤذون ويقاتلون من المسلمين والذين أخرجوا من وطنهم بدون سبب مبرر إلا إعلانهم بأن ربحهم هو الله، هم في موقف المظلوم المبغي عليه. وتطمين بأن الله قادر على نصرهم لأنه آلى على نفسه أن ينصر من ينصر دينه وهو القوي العزيز الذي لا غالب له.

- 10- أُبيح للمؤمنين ان يقاتلوا المشركين دفاعاً عن أنفسهم وأموالهم ووطنهم، وان يردوا اعتداءهم عليهم، بسبب ما نالهم من ظلم صبروا عليه طويلاً. ثم وعدهم الله بالنصر ودفع أذى المشركين عنهم: {وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ}.
 - 11- إن إباحة القتال لهم هي من جملة دفع الله عنهم، والباء في (بأنهم ظلموا) للسببية أي بسبب ما كان يقع عليهم من المشركين من سب وضرب وطرده ثم وعدهم الله سبحانه النصر على المشركين.
 - 12- التوكل من الأخذ بالأسباب أهم أسباب النصر، لأن التوكل يقوم على ركنين عظيمين **1- الاعتماد على الله** - تبارك وتعالى -، والثقة بوعده ونصره - تعالى -، فما خاب من توكل عليه. **2- الأخذ بالأسباب المشروعة.** وإذا لم توجد الأسباب فهو توكل كاذب بل هو تواكل، ولهذا قال الله - تبارك وتعالى - حاثاً على العمل بالأسباب: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِّن قُوَّةٍ وَمِنْ رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِّن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ} وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ {24}
 - 12- أن دفاع الله عن المؤمنين، إنما يكون والمؤمنون في مواطن الإيمان، وفي ميدان المعركة. وهذا يعني أن المؤمن الذي يستسلم لعدو الله وعدو المؤمنين، لا يكون في ميدان المعركة، ومن ثم فلا يكون من الله دفاع عنه، إذ لا معركة قائمة بينه وبين عدوه.. ومن هنا، كان واجبا على المؤمن الذي يطمع في دفاع الله عنه، ألا يلقي السلاح.
 - 13- الاستسلام للبغي، والسكوت على الظلم، فهو تمكين للشر، وتدعيم لبنائه، وإطلاق ليد، يضرب بما كيف يشاء في مواقع الحق، ومواطن الخير.. إن البغي، والظلم، والعدوان.. كلها وجوه منكرة من وجوه المنكر، ومطلوب من كل مؤمن بالله أن يدافع المنكر بكل ما ملكت يده، ووسع جهده.
 - 14- في يده سبحانه القوى كلها، وإنه لا غالب لله.. وفي هذا تحريض للمظلوم- وإن كان ضعيفا- أن ينتصف ممن ظلمه، فإنه على وعد بنصر الله له.
- والله اعلم
- وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ

سلسلة تفسير القرآن العظيم الإصدار رقم (388)



فوائد من تفسير سورة الحج الآية 39

تقدى ولا تباع

أعدّها عزمي إبراهيم عزيز